بين سروتين

ضحى جهاد أحمد ـ سوريا

راودني طيفه منذ زمن

فحاكت الأقدار شرنقة اللقاء

وكنتُ أمامه وجهاً لوجد عن سابق عاصفة .

التقيته في أكثر الأماكن توقعاً للصدف .. كحدث مرتب بعناية .. بدا طاغياً كبحر .. آسراً كلون الغروب .. شاهقاً كقامات التعب .. بسيطاً كالمطر .. يشرد الضوء من أنامله غيوماً وفرساناً .

عرفته قبل اللحظة الأولى .. أنا السجينة بفكري الشرقي .. المسورة بتوصيات أمي ولون تفاحتها .. المزنرة بمحرمات أبي .. المعتمرة تاج الشوك في مضائق الجلجلة . التقت عيناي بعينيه في حقول الخفر ونصف الاشتعال .. كان يتجول في المكان بخفة لون مضيء في لوحة .. لا ينخرط بطقوس أو مراسم أو أوسمة .

يجس مريضة مقرورة .. يلامس جبهة طفل .. يلثم خد عجوز .. يلف المكان بسحره وجلاله .. كنت أعرفه أو أتوقع ذلك .انجذبت إليه بكل ما أوتيت من إرادة .. تعلقت به لحد العبق ليست قصة غريبة أو مألوفة أو متوقعة أن تداهمنا النهايات في ذروة عشق الحياة .. لكن المدهش تفاصيل ذلك الارتباط وربما الالتصاق والتماهي .

يومها عدت إلى البيت بخطا ثقيلة معفرة بروائح الضباب .. تجنباً للمواجهة

اختصرت الكلام على أدنى مستوياته .. عانقني زوجي بود سحيق .. طوقتني كلماته ونبرة صوته الهادئة .. وثرثرات أطفالي ولون ضحكاتهم الصغيرة ..

لكنك كنت حاضراً بيننا .. رأيتك في تفاصيل التفاصيل تعرش على كروم حياتي فقد صرت ضمن مدارك كوكباً اكتشف حديثاً .. أو شهاباً يحترق .

كنت أخاف أن يلمحوك في ملامحي فأهرب من نظرات زوجي .. التي اخترقت روحي .. ذلك الرجل الذي اخترته عن سابق عاصفة .. وأقسمت له تحت الشمس والريح والأنواء .. أن أبقى معه بالرغم مما سيعتريه من زجاجات دواء ومشية مجعدة .. وسيبقى في ذاكرتي شاباً جديداً لا تهزه أمواج العمر ولا تطاله رياح السأم .

كيف سأخبره أني سأغدر به في عقر الاشتياق والربيع .. وهل سيفهم اكتشافي وحدة قياسية للحب غير الامتلاك والبقاء .. وهل سيسامح تعلقي بك لهذا الحد .. ماذا عساي أن أقول عن لقائنا .. عن رغبتي بمرافقتك .. وعن نصل نظرتك المغروسة في ذاتي ولغتي وسكناك بين الأعصاب ..

وهل سيطرب لأغنيتي المغسولة بالدمع والصديد ؟

وأبدأ بتمثيل دور الزوجة وأعرف أنني ممثلة فاشلة لا أقنع نفسي فكيف سواي .. أسمع وقع خطواتك في انتحاب جارتنا لسفر ابنها إلى ملكوتك .

يباغتني صوت صغيري يناديني (ماما) ألن تحكي لي قصة قبل النوم .. يركض إليَّ يرتمي في حضني كقمر في قلب بحيرة .. يطوقني فأحس ذراعه ناراً في بيدري اليابس .. أحمله إلى سريره متأرجحة بين ذاكرة مهتاجة ونسيان مطلق الخريف .. أحاول أن أحكي له قصة لقائنا .. أتراجع و أتوسل الصمت بكل عجرفة الأمومة ..

كيف سأخبره أني سأغادر إلى مرفأ آخر .. وأن نوارسي ستطفق فوق بحر جديد .. كيف سأقنعه أني أومن بملوحة الأهداب .. وأن بوصلتي صار لها سمت آخر .. كيف سأخبره أن خطواتي ستألف طريقاً غيره .. وأن دروبي تعشق عطرك ولا أملك لقدري تبديل .

هل أجرؤ أن أكلمه أن أمه سترسو في جزيرة لا تتمنى أن تلقاه فيها وستصلي أن يطول انتظارها لاحتضانه وستأمل بالمستحيل ألا تلاقيه في محطتها أبداً ..

أصمت ويتدحرج قلبي كقمر وقع وتشظى آلاف الكلمات والذكريات ولآثام الصغيرة ..

تذكرت إحدى الصديقات وكلامها عن قوس قزح أنه يغير المفروض وتمنيت أن تتباعد السموات بقوس إلهي أسيرُ تحته فلا أزور ذلك المشفى ولا ألقاك ولا أكتشف موعد الرحيل .

في لقائنا الثاني كنت بهياً كدرب جبلية تفضي إلى البحر وتشعل الأشجار ورقاً واخضراراً .. كنت حاسماً كاليأس النابت في أعماقي سنبلة تائهة التقطتها الريح

وقفنا كإشارتي تعجب بين زمنين يمتد العمر بينهما آلاف المساحات الشاسعة

قفزت فوق رصانتي وحيائي وشمس الشرق التي كوتني منذ الصغر .. أخبرتك عن موافقتي بل ورغبتي في مرافقتك لكن امنحني بعض لوقت لأرتب تفاصيل غيابي أو لأعبث بحياتي وأوراق التقويم ..

واتفقنا أن تزورني كل مساء للناقش الأمر ..

على وقع البخور المسائي الطاغي كنت تأتي شفافاً ومترفاً بالغموض .. نجلس لساعات نبوح بدمع يرفل الجفن .. تمسك بيدك ملوحة الجسد المتشظي .. وتشرب قهوتك المرة وتغادر بخفة الأثير ..

وأنتظرك في اليوم التالي .. وتأتي نتحدث عن كل شيء إلا ما اتفقنا الحديث عنه

أكملت عن طفولتي وضفائري عن أقلامي الملونة ودفاتري عن جدتي وأسماء الصديقات .. الكتب التي أحب .. رائحة العطر المفضلة .. أشد الأمور سرية لم أكن محرجة بالبوح عنها .. فأنا لست كسواك ..

منذ الصباح وأنا أنتظرك دون موعد أكتب لك هذه الكلمات لأبدد انتظاري .. ولأكسر شوقاً يستطيل انكساراً للضوء على الخلجان الرمادية ..

أحسك تقترب .. أشعر بك تتقمصني .. ويكبر السؤال معانداً كل احتمالات الإجابة . هل سيسامحني زوجي ؟ هل سيغفر لي أبنائي ؟ ألن يخيب ظن أبي ؟

ألن ينكسر قلب أمي ؟ بما سيفكر إخوتي ؟ وماذا عن الأصدقاء ؟

هل سيفهومن أنك ملاذي ولطالما كنت ملتصقاً بي ؟ هل سيفهمون أنك غير ما يعرفون أو يسمعون او حتى يتوقعون ؟ هل سيعذرون خطواتي المسافرة إليك ؟

ليس مهماً كل هذا .. حسبي أن أمتشق ذراعك الآن .. تحملني إلى ملكوتك بثوب زفاف هو كفني أسير بنعشي إليك .. نرتقي على وقع الأصوات ..

(سبحان الحي الباقي الذي لا يموت)